سامي خشبة

عبد الناصر واليسار المصري

(٢)

الليبرالي واليساريون وجها لوجه

... في سبيل البحث عن اجابة لسؤال يقول : لماذا يدافع اليسار المصري عن التجربة الناصرية ، رغم انها لا تعبر عن مبادئه ، بل قامت ضد هذه المبادىء ، وسحبت الارض من تحت اقدامه فخنقته وهي تتظاهر باحتضانه،واقامت مجتمعا طبقيا لا يقل ضراوة ومهارة واستغلالا عن المجتمع الذي هدمت هذه التجربة نصفه وامتزجت بنصفه الباقي، وفي سبيل الاجابة على سؤال اخر يقول : لماذا لا يسرع اليسار المصري بنفض يده من هذه التجربة التي يهاجمها الان اليمين لمحاولة هدمها وهدم اليسار معها ، حتى يتمكن اليسار من استعادة ذاته وجماهيره وبناء مستقبل جديد لنفسه ولها .. كتب الدكتور فؤاد زكريا ثلاث مقالات في مجلة « روز اليوسف » القاهرية ، فرد عليه سبعة كتاب يساريين بثماني مقالات : سبع منها في المجلة نفسها للرد على ما قاله الرجل صراحة او على ما اكتشفه اصحاب الردود بين السطور وكان اصحاب الردود بالتتابع هم : فتحي خليل (٥ مايو) ، وفيليب جلاب (١٢ مايو) ، وأحمد طه (١٩ مايو) ، ونجيب محفوظ (من خلال حديث قصير اجراه معه في ٢٦ مايو فتحي خليل) وأديب ديمتري (٢ يونية) ، وابو سيف يوسف (٩ يونية) ومحمد عودة (١٦ يونية) . ثم اضاف ابو سيف يوسف تعليقا وردا ثامنا في مجلة الطليعة (في عدد يوليو ١٩٧٥) حاول فيه ان يكشف التناقضات الكامنة في تطور فكر الدكتور زكريا ، وعزلته الكاملة عن حركة الواقع السياسي والاجتماعي المصري ، وتضارب مراحل تطوره الفكري مع مراحل القضية الوطنية المصرية في سنواتها العشرين الاخيرة . وكان أن قرر الدكتور زكريا ، وأصر على أن يرد على الردود السبعة الاولى (ومن الواضح انه لم يكن قد قرأ بعد المقال الثاني لابو سيف يوسف في الطليعة) ، فكتب مقالين اضافيين للرد على الردود (روز اليوسف ، في عدد ٧ ، ١٤ يوليو) (١) .

وقد يكون من المفيد أن نقدم ـ قبل اية مناقشة ـ النقاط الرئيسية التي اعتمد عليها كل من الكتاب السبعة في رده على الدكتور زكريا . ولكن من الواجب أن نقرر منذ البداية ، أن المقالين الاخيرين لفؤاد زكريا ، يوضحان استعداد الرجل للاستفادة الفكرية من مجرد الحوار ، وقدرته على تعديل كثير من ملاحظاته أو استكمالها بتأشير من ـ أو في ضوء ـ ملاحظات وتعليقات الاخرين، الذين لم يعتبرهم خصوما (وقد اعتبره بعضهم خصما) ولم يوجه اليهم قذائفه وان كان قد اتهمهم بالخروج على مبادئهم وطالبهم بالالتزام بها ، هذا رغم أن الدكتور زكريا كان من الكبرياء بحيث لم يشأ أن يعترف صراحة بأن يعدل بعض ملاحظاته او يستكملها بهذا التأشير أو في ذلك الضوء ، واكتفى بأن امتدح موضوعية بعض الكتاب ، وانتقد ما ظهر لدى كتاب اخرين من رغبة في التهجم او التجريح أو التفكه ، وهاجم دون مواربة ما لجأ اليه اخرون من بلاغة انشائية لا تعبر عن معان أو عن حقائق محددة .

● استند فتحي خليل في رده على القول بوجود علاقة عضوية وفكرية وكفاحية بين ثورة ٢٣ يوليو وبين اليسار ، وأن متاعب الثورة ومتاعب اليسار جميعا ، نشأت من غياب حقيقة هذه العلاقة « الاساسية » عن الثورة أو عن اليسار أو عن كليهما معا لفترات تقصر او تطول . وانه يستحيل بالتالي على اليسار ان ينفض يده من تجربة انطبعت بصماته على تفكيرها وبرامجها قبل ٥٢ ، وبعد ذلك حتى يومنا هذا ، وأن موقف اليسار من اخطاء الثورة هو تصحيحها ، ومن المنجزات تطويرها ، ومن اليمين رده على اعقابه .

● ويكرر فيليب فكرة الفرق بين موقف اليسار من « السلبيات » وبين موقفه من الايجابيات ، ويؤكد أن اليسار هو الذي قدم اكثر التقييمات لثورة يوليو موضوعية بقدر ما اتيح له من فرص التعبير (لا من فرص المعرفة والفهم) ، وأنه لم ينتقد ثورة يوليو احد مثلما انتقدها اليسار ، ثم يستند فيليب الى الحاجة المنطقية فيسأل لماذا يهاجم اليمين التجربة الناصرية اذا كانت كما وصفها الدكتور فؤاد زكريا ، ويسأل : اذا كان العهد الناصري قد خرب نفس الانسان المصري فكيف اذن حقق هذا الانسان المخرب معركة اكتوبر ونصر العبور ؟ ويضيف فيليب أن اليسار هو الذي انتقد محاولات الابطاء في التنمية وفي التغيير الاجتماعي ، وهو الذي طلب ديموقراطية أوسع للجماهير الشعبية وضرب الطبقة الجديدة ، وهو الذي طلب التقشف والتعبئة الشعبية وتصفية الطبقة الجديدة بعد ١٩٦٧ .

---

(١) وكان الكاتب القصصي ثروت أباظة ، قد حشر نفسه في النقاش ، وكتب يؤكد أنه من اهل اليمين وان اهل اليمين لا علاقة لهم بامتلاك الارض ولا بالاستغلال ، وانما هم المؤمنون بالله والديموقراطية ، وأن الشيوعيين كفرة وفاشيست ، وبالتالي فان فؤاد زكريا نفسه يميني يبغض الشيوعيين (روز اليوسف في ٩ مايو) ولم يرد عليه احد سوى سعيد خيال .

● اما احمد طه (وهو قائد عمالي وعضو مجلس الشعب) ، فيضع قدميه على بداية طريق جديد من الحوار مع الدكتور زكريا ، بقوله ان الجانب الاقتصادي والاجتماعي هو الجانب الحاسم في تقييم « الناصرية » ، ويلوم الدكتور زكريا لانه لم يضع هذا الجانب في المكانة الصحيحة التي تؤكد وزنه الخطير ، ويقول احمد طه ان « الحفاء » لم يعد ظاهرة مقلقة مثلما كان قبل ١٩٥٢ ، وان التعليم أصبح مجانيا للمعدمين وان ما تحقق في مجالات التأمينات الاجتماعية والبطالة والصحة وساعات العمل كلها ظواهر تؤكد أن قدرا ملموسا من التقدم قد تحقق ، بالاضافة الى التغير الحاسم في النسبة بين نمو راس المال العام ورأس المال الخاص . ويضيف احمد طه بعد ذلك مقولة اساسية تؤكد أن : « النضال اليومي منذ الحرب العالمية الثانية كان هو المدرسة الاساسية لتثقيف الجماهير ، خاصة المراتب المتخلفة منها ، وان ذلك في السياسة شرط لثورية الحركة الجماهيرية .. فالحركة الجماهيرية مناضلة ، واعية ، من الممكن خداعها في المسائل الثانوية (!!) ولكن في المسائل الرئيسية اصبحت واضحة ومحددة .. واقصد بالمسائل الرئيسية قضية العداء للاستعمار والتحول الاجتماعي أيا كانت مسبباته (!!) .. » .

● ولنؤجل التعرض لما قاله نجيب محفوظ في حديثه القصير مع فتحي خليل ، لان أديب ديمتري ، يأتي بعد ذلك لكي يؤصل الاتجاه الذي بداه احمد طه بأن يتعرض بالنقد المنهجي لاسلوب تقييم « تجربة الحكم الناصري » أو « عبد الناصر » على اساس تحديد ما يسمى ب « السلبيات » مقابل « الايجابيات » . ويطرح أديب ديمتري سؤالا أساسيا لتحديد القضية : هل هي محاكمة عبد الناصر كفرد وزعيم بكل امجاده واخطائه ، وتقييم تجربة الحكم الناصري ، ما لها وما عليها ، في الاطار المحدود الذي وقعت فيه اطار الزمان والمكان ؟ أم هي قضية الناصرية كظاهرة تاريخية وتيار وفلسفة ؟ » . ويجيب : « نحن بازاء ظاهرة تاريخية ، لا زالت أبعادها وآثارها تتكشف منذ الخمسينات ، ويتطلب تقييمها مناهج التحليل التاريخي والاجتماعي ومعايير الموضوعية التي تتخطى أساليب التحليل النفسي واخطاء الافراد والاحكام الاخلاقية على الزعامات ونظم الحكم ». وبعد ان يحلل اديب ديمتري بسرعة لا ينقصها العمق علاقة «التجربة الناصرية» بحركة التحرر الوطني ، يسأل عن السبب الذي يدفع اليمين الان الى مهاجمة هذه التجربة هذا الهجوم المسعور ، ويقول ان الاجابة لا تكمن في المحل الاول في « شخصية الزعامات » ولا في قوائم « الايجابيات والسلبيات » وحساباتها وانما : « في طبيعة هذه النظم من حيث تركيبها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، ووضعها ودورها في حركة الثورة الوطنية والعالمية في مرحلتها الراهنة .. هذه النظم جميعا .. لا تقاس بمعايير الاشتراكية ، وانما هي تنتمي بالفعل الى حركة التحرير الوطني .. فهي تعبر عن مصالح الطبقات والفئات الوطنية ... فالقيادة فيها عادة للبورجوازية الوطنية باقسامها واجنحتها المختلفة.. والايديولوجية الغالبة والفكر الرائج للبورجوازية الصغيرة .. وفيه تختلط شعارات الوطنية والتقدمية والعصرية ، بضيق الافق وقصر النظر .. كما تختلط الاشتراكية بالمحافظة وقصر النظر بل بالسلفية احيانا » .

ورغم ان أديب ديمتري يقول انه لو قامت اوضاع ديموقراطية وتحالف وطني حقيقي لعادت ثمار ومكاسب ثورة التحرر الى الشعب العامل في المحل الاول ، ورغم انه يعرف أن ثمار ومكاسب الثورة الوطنية تتكدس في أيدي الطبقات الجديدة التي تلجأ الى تدعيم : « مصالحها ومراكزها المستحدثة بالانفراد والتسلط » ، ورغم انه يعرف ان هذه الطبقات بهذا الشكل : « تهدر شروط الوحدة الضرورية بين القوى الوطنية والتقدمية لتستبدلها بالبقط وشعارات التحالف ، وباجهزة القهر والقمع في نفس الوقت » . رغم كل هذا فانه يعلن ان المسار الموضوعي الصحيح للحكم على مثل هذه التجارب، المستمد في عصرنا من واقع حركة الثورة وقوانينها (اذ هي حركة موجهة في الاساس الى تصفية الامبريالية ونظامها الرأسمالي العالمي وفتح الطريق الى الاشتراكية) ، المعيار الموضوعي ـ بناء على ذلك « هو انتهاج سياسة نشطة في مواجهة الامبريالية » هذا عن الخارج أما عن الداخل فهو : « دعم الاستقلال الوطني السياسي والاقتصادي وتحقيق التقدم الاجتماعي » . فقط دون أن تكون « الديموقراطية » معيارا اول وأساسيا ، اذ يتضح مقدار أهميتها من تحليل اديب ديمتري نفسه . ولكن لنؤجل المناقشة الى ما بعد .

● وبعد اديب ديمتري يأتي ابو سيف يوسف ، فيكتفي بمناقشة فؤاد زكريا حول تناقضاته مع نفسه من خلال عدة مقالات كان قد كتبها قبل وفاة عبد الناصر وبمناسبة وفاته ، وكيف كان فؤاد زكريا يشيد بعبد الناصر(1) ، ثم اضاف ابو سيف في « الطليعة » قراءة تحليلية وتاريخية لبعض كتب فؤاد زكريا ، لكي يثبت ان « استاذ الفلسفة » كان منقطعا عن واقعنا الاجتماعي ومراحل تطور ومعارك حركتنا الوطنية بعد ١٩٥٢ : فهو يكتب عن نيتشه في نفس عام تأميم قناة السويس ، فيدافع عن العقل واللاعقل معا ، وفي عام ١٩٦٢ ، عام صدور الميثاق وبعد سنة من قوانين التأميم ، يصدر الدكتور زكريا كتاب : « نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان » ، فيشيد بالفلسفات والمناهج المثالية ، ويفسرها تفسيرا مثاليا ، بينما هو يحاول أن يهاجمها وان يقدمها من منظور نقدي ، وفي عام ١٩٦٦ الذي يصفه ابو سيف بانه كان عام : « المعارك غير المحسومة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا .. رغم ان الثورة كانت لا تزال صامدة تشدد النضال ضد الاستعمار الجديد وضد اسرائيل . » في ذلك العام ، يكتب فؤاد زكريا مقالا يطالب فيه بعدم الهجوم على الوضعية المنطقية لانه ليس تيارا منتشرا وليس من التيارات الفكرية القومية ، ثم يترجم كتاب « نشأة الفلسفة العلمية » من تأليف هانز رايشنباخ ، أحد اقطاب الوضعية المنطقية. وبدلا من مناقشة فؤاد زكريا ، يطور ابو سيف هجومه على الوضعية المنطقية ، لكي يكشف في النهاية عن ضرورة اكتشاف « العلاقة المعقدة جدا بين الوضعية المنطقية وبين حركة المجتمع المصري » .. ويبدأ اكتشافه بنفي ان يكون قادة الثورة المصرية (بالقطع) من تلامذة الوضعية المنطقية (!) ، ولكنهم رغم هذا رفعوا بالفعل شعار « التجربة والخطأ » ـ وهو شعار وضعي كما ترون . لانه يقوم على رفض اتخاذ او قبول نظرية محددة . وهذا الرفض مسؤول عن التخبط والقصور في خطط التنمية وعملية التحول الاجتماعي المصرية ، لان : « أي حركة ثورية لا تستكمل نظريتها في بناء المجتمع والدولة ، انما تبدد وقتا ثمينا وطاقة هائلة في البحث عن نظرية تسترشد بها » . وكان هذا النقص ـ بالنسبة لثورة يوليو ـ مأساة حتى صدور الميثاق الذي هو « الوثيقة النظرية للثورة » . ولكن بعد صدور قرارات التأميم وميثاق العمل الوطني ، « وجدت ثورة يوليو انها تخوض معركة حياة او موت ، أي معركة مصير على المستوى الايديولوجي » ، الامر الذي دفع احتدام الصراع الايديولوجي الذي يبدو من حديث أبو سيف انه استقطب بين اصحاب الاشتراكية العلمية (دعاة للتخطيط وضرورة ووسائل وقوى التغيير الاجتماعي الجذري) وبين الوضعية المنطقية (داعية الى تفكيك العالم والمجتمع الى جزئيات صغيرة ، لا تربطها ، ولا تحتاج الى ـ نظرية شاملة ، مشككة في العلاقة الموضوعية بين الاشتراكية وبين التقدم) ورغم هذه الدلالات السياسية الهامة لذلك الجدل بين الاشتراكيين العلميين وبين الوضعيين المناطقة في مصر في الثلث الثاني من الستينات ، فان فؤاد زكريا يصف المعركة بين الفريقين بانها «معركة

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

(1) وقد كشف فؤاد زكريا في رده التالي ان احد المقالين لم يكن هو كاتبه ، وانما كان بقلم د. عبد الغفار مكاوي .

عبد الناصر واليسار المصري

– تابع المنشور على الصفحة ٧ –

الملل »» . ثم يلتفت ابو سيف مرة ثانية الى مقالات الدكتور زكريا في « روز اليوسف »» لكي يكشف التناقضات غير المشروعة (عمليا) في فكره ، بين نيتشه والنزعة التجريبية والوضعية المنطقيه ، واهداره لاولويات علم المنطق الذي يبدأ بالحدود والتعريفات فلم يعرف الاشتراكيه ولا اليسار ، وتحدث عن الانسان العادي او البسيط ، او المصري دون أن يقول لنا ما يقصد بالضبط(۱) ، هذا بالاضافه الى افتقاد مقالات الدكتور زكريا للتفكير المنهجي الذي يرتبط به بناء المقالة اشد الارتباط ، على حد قوله يذكرنا ابو سيف للفيلسوف والعالم الرياضي وايتهيد . واخيرا يناقش ابو سيف – ويدحض – اقوال الدكتور زكريا حول الافراج عن الشيوعيين المصريين عام ١٩٦٤ وارتباطه بزيارة خروشوف لمصر ، وحول اغراء الشيوعيين المصريين بالمناصب الرفيعة وعن الذي اجتنب الاخر الى سنه . عبد الناصر ، ام اليسار ؟ .

أما محمد عودة فقد كتب موضوعا بلاغيا طويلا ، يدور حول أفكار عامه مجملها ان المعيار الوحيد لثوره عبد الناصر هو ما قدمه للقضية المصريه ، وان جوهر الاشتراكيه واحد عند جميع التقدميين (اشتراكيين علميين ، متدينين ، ملاحده .. الخ) وانهم لذلك يجب ان يتوحدوا وقد عمل عبد الناصر على توحيدهم ، وان العقبات التي واجهت « التطبيق الاشتراكي » في تجربة عبد الناصر ناتجه من المقوله النظريه التي تثبت ان البناء الفوقي للمجتمع يتغير بايقاع ابطأ من ايقاع تغير البناء التحتي ، وان الطبقات الجديدة والانحرافات « لعنة »» تصاحب الاشتراكية دائما في آي مكان وتحت أي سلطة ، رغم انها تنتهي دائما باستمرار الثورة ، اما غياب الديموقراطية (بمعنى الحريات السياسية) فقد كان ضرورة في مصر ، وفي كل التجارب الاشتراكية الاخرى ، لانه لا يمكن ان تكون هناك حريات سياسية (أو ديموقراطية) في ظل : « الامية او المجاعة او المرض او البطالة .. واغلبية سحقها الاستبداد والاستغلال (۲) » .

واخيرا يأتي نجيب محفوظ ، الذي اتفق بالفعل مع فؤاد زكريا في اتجاهه العام الذي كان مؤداه ان مباديء عبد الناصر كانت عظيمة ، ولكنها كانت مجرد « كلام في الاشتراكية »» ، وان التطبيق كان ركاما من الاخطاء المتتاليه ، وأن على اليسار ان يميز موقفه بناء على الدفاع عن المباديء ، وكشف اخطاء التطبيق والا :« فان الراي العام معذور اذا خلط الحابل بالنابل »» .

ويرد فؤاد زكريا على نقاده السبعة في مقالين طويلين (عددي ٧ ، ١٤ يوليو من روز اليوسف) . ورغم ما ذكرته من قبل – عن وضوح استعداده للاستفادة والتأثر باراء الاخرين في المناقشة – ورغم انه اكتشف انه لا بد من التفرقة بين « التجربة الناصريه » وبين « ٢٣ يوليو » وان علاقة اليسار بالثورة المصرية لا تتوقف على نوع علاقته بسلطتها ايام عبد الناصر ، وبالتالي فليس المطلوب هو « نفض اليد »» منها ، وانما تقديم النقد الموضوعي العملي لها بما يوضح انها ليست « تجربة اشتراكيه »» بقدر ما كانت محاولة لفتح طرق النمو نحوها بعد التحرر الوطني ، ورغم اكتشافه من خلال المناقشة ان موقف اليسار بعد مايو ١٩٦٤ (أي بعد الافراج عن الشيوعيين) لم يكن موقف المرتشي ، وانما كان موقفا بالغ التعقد يتضمن قدرا كبيرا من « الانخداع »» باوهام لم تتحقق ، ورغم انه توقف بهدوء عند ما كتبه احمد طه ثم آديب ديمتري في البداية ووصفهما بالتعقل والهدوء والمناقشة الموضوعية .. رغم كل ذلك فقد اثر الدكتور زكريا ، مدفوعا الى ذلك – في تقديري – بالموقف العام الذي اتخذته الردود السبعة : موقف تأكيد أن اليسار كان يقظا لكل شيء من البداية ، وآنه قال كل ما كان ينبغي ان يقال ، وانه مع هذا يرى ان التجربة الناصرية : « كانت »» تجربة ينبغي الدفاع عنها – رغم الوقوف ضد اخطائها ، لانها سارت في اتجاه الحركة الصحيحة للتاريخ : حركة النضال ضد الامبريالية والتحرر الوطني وتكوين التحالف العريض بين حركة التحرر وبين الاشتراكية العالمية ، أقول ان الدكتور زكريا دفعه هذا الموقف الى اعلان ان الهدف الاصلي من دراسته لم يكن تقييم حكم عبد الناصر أو محاكمته وانما : « تقديم رأي مخلص لليسار ، ابين فيه ان النكسة التي تعانيها الاشتراكية الان ، لا ترجع الى ضراوة هجمات اليمين ورغبته في استعادة نفوذه فحسب ، بل ترجع ايضا الى اخطاء سابقة لليسار »» . وبذلك أكد فؤاد زكريا استسلامه للفخ الذي نصبه السؤال الاصلي الذي طرحته « روز اليوسف »» ، خاصة حينما اوضح – بعد تأكيده لضرورة التفرقة بين التجربه الناصرية وثورة ٢٣ يوليو ان التجربة الناصرية : « كان لها نطاق محدد ، بدأ باحداث ربيع ١٩٥٤، وانتهى في يونية ١٩٦٧ »» .. أي انه اكد معنى اكتمال التجربة وانتهائها ودخولها ذمة التاريخ ، قبل وفاة عبدالناصر – حتى – بثلاث سنوات .

وبذلك فضل فؤاد زكريا أن يستمر في عملية البحث عن « السلبيات »» و « الايجابيات »» ، وفضل آن يبتعد عن محاولة تقديم اي تصور تاريخي اجتماعي متميز وقائم على الظروف والملابسات المحلية القوميه والعالمية العامه–مثلما طالب هو في رده على اديب ديمتري– لثورة يوليو ولليسار المصري في وقت واحد . بل لقد بلغ من تجاهله التميز الظاهرة المصريه (بطرفيها : الثوره واليسار جميعا) لدرجة اصراره – ثلاث مرات – على الاستشهاد بمسالة ادانة ستالين من جانب الحزب الشيوعي السوفيتي : ولم يضع في اعتباره (ولا تنبه نقاده) الى الاختلاف الكيفي بين عملية محاسبة ستالين ومحاسبه عبد الناصر (ولاحظ انه كان قد آنكر ان يريد محاسبة عبد الناصر) اختلافا يبدأ من آلفرق بين النظامين والمجتمعين الى الفرق بين الظروف التاريخيه والاسلوبين اللذين اتبعا في « المحاسبة »» هناك وهنا .

ورغم أن آديب ديمتري ، حاول ان يجر المناقشة الى المستوى « الموضوعي »» بتقديم تحليل تاريخي عام للتجارب المشابهة في العالم الثالث ، مع محاولة للتركيز على الاتجاه المعادي للسيطرة الاستعمارية فيها ، واستخلاص معيار اساسي للحكم عليها يتكون من شقين : العمل النشيط ضد الامبريالية في الخارج ، ومن اجل الاستقلال الوطني السياسي والاقتصادي والتقدم الاجتماعي »» في الداخل ، فينسى بذلك معيار « الديموقراطية »» واطلاق الحريات السياسية الحقيقية لقوى الشعب والتحالف الوطني الصامدة ، وهو المعيار الذي يضمن التأثير الفعال والحقيقي للشقين الاولين من معياره هو .. رغم كل ذلك يتجاهل فؤاد زكريا هذا الطريق « الموضوعي »» والعملي الذي فتحه امامه اديب ديمتري ولم يستكمله : لقد اكد اديب أن هذه التجارب لا تقاس بمعيار الاشتراكية ، وانما بمعايير حركة التحرر الوطني والفئات المتوسطة التي تتولى قيادتها ، وبذلك يتحدد معنى وقيمة موقف اليسار منها على مراحلها المختلفة .

---

(۱) ويتهم ابو سيف الدكتور زكريا بانه اعتاد اللعب على الحبلين ، والتنقل بين معسكرين ، ويصف اسلوبه بانه يميز بزئبقية عجيبة . ولكن هذه الصفات الشخصية لا تدخل في مجال مناقشتنا .

(۲) كانت في مقال محمد عودة نبرة حدة قتالية واضحة ضد فؤاد زكريا ، وكثير من التوصيف السياسي الذي يقصد به « التصوير »» الشخصي للطرف الاخر ، وتصنيفه في جبهة اليمين الفكري .

وكان احمد طه قد اشار على الدكتور فؤاد زكريا ان ينسى مؤقتا الطريقة التي تتم بها تربية وتثقيف المثقفين ، مؤكدا ان الجماهير الشعبية تتربى في خضم النضالات اليومية . وكان احمد طه ، القائد العمالي وعضو مجلس الشعب ، جديرا بأن يواصل بناء فكرته لكي يستنتج ان مضمون ما يتعلمه المثقفون من طريقتهم في التربية هو الذي ادى (تاريخيا) الى انتاج هذا اليسار ـ وهذا التيار الليبرالي الذي يبدو فؤاد زكريا من ابناء اخر سلالة له ـ الذي يبدو منقطع الصلة انقطاعا كاملا بحركة الجماهير ، رغم قدرته على تصورها نظريا بشكل صحيح من الناحية العامة . الا يمكن ان يكون هذا الانقطاع ـ بين الليبرالية واليسار وبين الجماهير ـ هو السبب في امكانية تضليل حركة الجماهير في المسائل الثانوية التي لا يرى احمد طه انها ذات اهمية كبرى : أوليست مسالة مثل « الحريات السياسية » من المسائل الهامة التي تضمن عدم امكانية خداع حركة الجماهير بالمسائل « الكبرى » الاخرى ، مثل مسالة التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، خاصة اذا كانت الفئات الاجتماعية صاحبة الصدارة والقيادة فئات لا تستطيع ان تكون « ثورية حتى النهاية » ومستعدة للمساومة خوفا من تعاظم حركة الجماهير نفسها ، ومستعدة لضرب هذه الحركة بالذات حتى تستطيع ان تساوم بهدوء (على القضايا الكبرى ذاتها) مع اعداء الامس الذين تسعى لمصادقتهم الان ...

ويقدم ابو سيف يوسف ، ثم محمد عودة نموذجين صارخي الوضوح على هذا الانقطاع من جانبين مختلفين في مناقشتهما لفؤاد زكريا .

ما الذي يعنيه ان يكتب فؤاد زكريا عن نيتشه عام ١٩٥٦ ، أو ان يكتب عن كوميونة باريس ؟ هل كان من الضروري ان يكتب عن نيتشه ، وان يترجم كتابا وضعيا منطقيا ، وان يزعم ان مناقشة الماركسيين مع الوضعيين المناطقة لم تكن سوى « معركة الملل » وان وراءها نوعا من الخلافات الشخصية لكي تكتشف انه معزول عن حركة الواقع ؟ هل كان نيتشه والمثالية الالمانية وهايزنبرغ وريشنباخ والقول بتجزئة العالم الفيزيقي وعدم قيام علاقة موضوعية بين الاشتراكية والتقدم .. هل كان لكل المناقشة حول ذلك وغيره تأثير حقيقي على « الحركة الجماهيرية » ، بل على الحركة الثقافية نفسها في مصر الستينات ، بل حتى على منهاج التعليم في اقسام الفلسفة بالجامعات المصرية ؟؟ لا نظن ذلك ، وما نظن الدكتور زكريا والاستاذ ابو سيف يوسف معا الا نتاجا لنفس الظاهرة : عجز تيارات الفكر والسياسة الراديكالية المصرية ـ لظروف تاريخية كثيرة ـ طوال اجيال خمسة عن غرس جذورها بعيدا في تربة العقلية المصرية ، احتياج هذه التيارات الى « عمل » من نوع مختلف ، قد يكون في اشارة احمد طه عن النضالات اليومية لمحة عابرة منه ، وان كانت لمحة ناقصة وقاصرة .

اننا نعرف تماما دور « الوعي » في حركة التاريخ ، وفي حركة النضال من اجل التخلص الكامل من الاستغلال والقهر : من اجل الانسان الكامل والمجتمع الانساني الحقيقي . ولكن الوعي ، وعي الجماهير الامية والفقيرة والمطحونة اللاهثة باستمرار وراء لقمة العيش ، غير مزودة بثقافة ما سوى ما يقدمه لها مشايخ الجوامع والزوايا وكهنة الكنائس ، او الاذاعات المختلفة (في احسن احوال التقدم التكنيكي) هذا الوعي ، ليس هو الوعي الذي يمكن ان يربي الجماهير صاحبة المصلحة في التحرر من الاستغلال والقهر بروح الثورة ، وينتزع منها تفككها وعجزها وقلة حيلتها وفرديتها وجهلها بأبسط حقائق وقواعد العالم الاجتماعي او العالم « الفيزيقي » . ومن المؤكد ، كما يعرف الدكتور زكريا والاستاذ ابو سيف وغيرهما من الكتاب السبعة ، ان الكلام عن نيتشه والوضعية المنطقية لن يؤثر في هذه الجماهير تأثيرا رجعيا ، كما ان الشرح العلمي لنظرية فائض القيمة او خطورة الامبريالية ونزعاتها العدوانية لن يكون مجديا في سبيل التحرر .. في الاوضاع الحالية لجماهيرنا على الاقل . ربما تأثر بعض « الطلبة » وبعض « المثقفين » في هذا الاتجاه او ذاك ـ وهذا تأثير يحدث بالقطع . ولكننا نعرف ـ كما يعرف الاساتذة الكتاب ـ ان هذه الاعداد البالغة الضآلة من قراء الفلسفة (التي غالبا ما تكتب بأسلوب ، وتقوم على اسس وتمتلىء باسماء ومصطلحات تحولها الى كميات من المعلومات ينساها المتعلمون انفسهم حالما ينتهون من الامتحان او يفرغون من القراءة .. اذا اكملوها) ليست هي الاعداد التي يمكن ان تكون كافية لاحداث التغيير الاجتماعي المطلوب ، هذا مع ضرورة الاعتراف بانها اعداد لا تنتمي الى الفئات الاجتماعية والطبقات التي يمكن ان تحقق هذا التغيير الاجتماعي ـ حتى بالطرق السلمية، ان كانت هذه الطرق مفتوحة وميسرة حقا . وقد يكون هذا الفهم المغلوط والمبالغ فيه لقيمة هذه المناقشات عند ابو سيف ، هو السبب الكامن وراء اهتمامه الشديد بافتقار عبدالناصر ونظامه الى « نظرية » ، مهملا السبب الاجتماعي والتاريخي لغياب هذه النظرية .

ولكننا لا نستطيع ان نتهم الكتاب « الثمانية » ، أي فؤاد زكريا ومعارضيه السبعة بأنهم جميعا كانوا غافلين عن هذه الحقائق : لقد اشار فؤاد زكريا اكثر من مرة الى ان التجربة الناصرية لم تكن «اشتراكية» . وقال اديب ديمتري انه لا يمكن الحكم عليها بمعايير الاشتراكية مهما رفعت من شعارات الاشتراكية ، واكتفى احمد طه بقول انه قد تحقق « تقدم ملموس » هذا رغم ان كتابا آخرين ، مثل فتحي خليل ، قالوا بوضوح ان بصمات اليسار موجودة على النظام وعلى ثورة ٢٣ يوليو قبل قيامها ، وانه مسؤول عنها بقدر مسؤوليتها عنه ايضا ، وقال ابو سيف يوسف ان « النظام » الذي كان يسير على اساس اقتصادي ليبرالي (رأسمالي) حتى عام ١٩٦٠ ، قد بدأ ينتقل الى مواقع جديدة تماما في تطوره بتأميمات يوليو ، وبدأت ثورة يوليو ، بعد كسب المعارك ضد الاستعمار القديم ، تنتقل الى معركة من اجل تنمية اقتصادية مستقلة ، وان هذه المرحلة كانت تؤكد اقتراب معركة حاسمة مع الاستعمار الجديد ، والابتعاد عن التبعية للنظام الرأسمالي العالمي، ووضع بناء المجتمع الاشتراكي هدفا ، وهي مقدمات جعلت الالتقاء بين اليسار والناصرية لقاء موضوعيا ، لا يقوم على البحث عن تبريرات لاخطاء النظام ، وانما يقوم على « الوحدة والصراع » : الوحدة من اجل النصر على الاستعمار الجديد وكسب معركة التنمية الاقتصادية المستقلة .. الخ .. والصراع على اساس نقد « اخطاء النظام » ... ثم يعدد ابو سيف المقالات والدراسات والملفات والمناقشات التي كتبها وشارك فيها مفكرو اليسار وكتابه ... والتي من الواضح انها وان شهدت بنقاء صفحة اليسار وحسن نواياه ، فانها تشهد ايضا بانه كان « يؤذن في مالطة » ولم يكن يؤذن بين من يمكن ان يلبوا نداء الصلاة .. كان يكتب ويؤلف ويحاضر لجماهير لا تهتم الا نسبة ضئيلة للغاية منها بقضايا « التغيير الاجتماعي الحقيقي » الا اذا كانت « تحت قيادة » حركة ثورية منظمة وواعية ومسيطرة تتحرك وتقود خلفها جماهير القادرين على قراءة الدراسات العميقة والجادة (بالفعل) التي كتبها اليسار ، اي جماهير الطبقات التي يمكن ان تدخل معركة ضد الاستعمار الجديد من اجل ان تسيطر على الاقتصاد المستقل ،لا من اجل ان تنفذ شعار الاشتراكية الذي رفعته ثورتها وجعلته هدفا لها ..

وبينما يعبر فيليب جلاب عن موقف مشابه لموقف ابو سيف يوسف ، فان محمد عودة (الذي يتحدث لا كماركسي وانما

كناصري) فانه يطمئن ان المعيار الوحيد للحكم على التجربة الناصرية هو ما حققته للقضية المصرية اي قضية انهاء الاحتلال البريطاني، واعتقد انه بهذا القول يفتح الباب امام سؤال يمكن ان يدين ثورة ٢٣ يوليو ادانة ظالمة رغم شكلها الحقيقي : سؤال عن : وماذا عن الاحتلال الاسرائيلي ، وما حدث بسببه ومن خلال العمل على « ازالة آثار عدوانه » ، على المستوى المصري ، والعربي ، وعلى مستوى جميع الدول النامية الفقيرة (غير المنتجة للبترول)والذي طوح بها العمل العربي على ازالة آثار العدوان الى هوة مظلمة من الافلاس تقريبا بسبب القفزة الهائلة المفاجئة في اسعار الطاقة والمواد المصنعة والمواد الغذائية ، القفزة التي جعلت التضخم السابق عليها حلما ورديا بالنسبة لكابوسها المفزع . (ومصر بالذات واحدة من هذه الدول .. فتاملوا ! !)

وبتجاهل محمد عودة لمعايير التنمية ورفع مستوى معيشة الجماهير الفقيرة ومحو الامية ومكافحة البطالة والمرض والاستغلال ، ومعيار الديموقراطية ، بل بتكريسه لمعيار « اللاديموقراطية » وظهورالطبقات الجديدةوالانحرافات والبيروقراطية والفساد واعتبارها ظواهر عادية ، قدرية لا مهرب منها الا « استمرار الثورة » ـ نفس الثورة التي تتجاهل ان معاييرها اشياء اساسية من اجل ان تصبح الثورة « ثورة » فعلا ... بذلك التجاهل وهذا التكريس يصبح مقال محمد عودة في الحقيقة نوعا من « الرثاء » الذي هو مديح الموتى .. يسيء حتى الى القضية التي يدافع عنها ..

* * *

هل نطالبهم ، اذن ، بان ينقدوا انفسهم ، وان يبدأوا من جديد ؟ هل نطلب من الليبرالي ان يكون ليبراليا حقيقيا ومن الاشتراكي العلمي ان « يغسل وجهه » لكي يستعيد « نقاءه الثوري » ... انها ليست مشكلة اخطاء في التحليل السياسي ، ولا في العمل التكتيكي ، ولا في رسم الاستراتيجية ، وانما هي نتائج طبيعية لحركة تاريخ كامل ، يصعب لهذا الجيل ان يتجاوزها وان كان من الواجب علينا ان ندرسها ، وان نستفيد حتى بدراستهم هم لها .. في انتظار ان ينبت الواقع الجديد القيادات الفكرية والسياسية ، الليبرالية حقا ، واليسارية حقا التي تسعى الى « المعرفة والفهم » قبل ـ ومن خلال ـ سعيها الى « فرص التعبير » التي قد يسمح ـ وقد لا يسمح ـ بها خصوم المعرفة والفهم وحرية التعبير !.

ملحق

بعد اتمام هذا المقال ، صدر عدد ٢٨ يوليو من روزاليوسف، محتويا مقالا لحسن صبري الخولي ، (مستشار جمال عبدالناصر ، ومبعوثه الشخصي) يطالب فيه اولا بتحليل شخصية عبدالناصر ، حتى يمكن فهم تجربة نظامه ، ثم يقدم فيه تحليله الخاص لشخصية الزعيم الذي خدمه باخلاص وعرفه عن قرب ، فيقدم لنا صورة لديكتاتور طاغية ، يرفض آراء الاخرين ، ويستهين بمناقشاتهم وقدراتهم على التفكير ، ويتجسس عليهم ويشك فيهم وفي ولائهم حتى ولو كانوا اقرب المقربين اليه ، ويحكم بالاجهزة السرية ، ويكتفي من العمل السياسي بالخطب . وينجح احيانا بضربات الحظ العبقرية ، رغم انه يبدو كالنبي الذي ارسلته « القوى الغيبية » لحكم وقيادة شعب مصر ، ويطالب بان تخضع له ولتجاربه شعوب الامة العربية .. وبالتالي ـ منطقيا ـ فلا بد ان يكون هو الذي جنب اليسار ، ولا يمكن ان نكون نحن الذين انتصرنا ، بل « ارادة الصمود » التي بثها هو في قواتنا المسلحة التي ينبغي ان نقتدي بها في النظام والدقة والكفاءة حتى تتخلص من عيوب عهد عبدالناصر .

.. هذه خلاصة امينة لما قاله الكاتب .. وانا .. لم تعد لدي القدرة على مزيد من التعليق على مثل هذا الكلام .. الآن على الاقل !

القاهرة

دار الاداب تقدم

امرأتان في امرأة

رواية بقلم

الدكتورة نوال السعداوي

صدرت حديثا